الفصل العاشر

الاتزان الفكري

"إن تلك المدرسة الجافة، التي ارتبط بها الفكر الأوروبي منذ (أبيلارد) تخلق لحظات من الجفاف، وساعات من الجدب. إن العقل المحترق بالتأمل، يتعطش إلى البساطة تعطش الصحراء إلى الماء الزلال".

رينان

مدينتي الفاضلة

يحق لشاب مفكر، ثاب إليه هدوء النفس بعد رحلة فكرية شاقة ذاق فيها مرارة الشك، وعاني جفاف التأمل، وتعرض لعواصف اليأس؛ أن يتطلع إلى مثل جديدة يتوجه بها إلى الشباب المفكر في حيرته. فلا يحلم "بجمهورية أفلاطونية"، الحكم فيها معقود لواؤه للفلاسفة، ولا يحلم "بأتلانتس الجديدة"، جزيرة العلم والعلماء التي تخيلها بيكون مجتمعاً مثالياً، لا يقطنه غير علماء توفروا على البحث التجريبي وحده. إنما يحلم بمجتمع حقق أفراده في أنفسهم توازناً فكرياً: فلا الفلسفة سيطرت على عقولهم بأفكارها الباردة، وتأملاتها الجافة، الخالية من حرارة الحياة؛ ولا العلم تملك حواسهم، فأحال حياتهم مجموعة من التجارب الطبيعية في معمل الكون؛

ولا الروح الدينية سيطرت على نفوسهم في تزمت، وشغلتهم عن واقع الحياة في جمود، فكانوا أشبه شيء برهبان في دير الحياة؛ ولا النزعة الفنية استولت على قلوبهم، وانتزعتهم من دنيا الواقع ليعيشوا في عالم خيالي صرف.

شد ما نعاني اليوم من النمو العلمي، الخالي من التناسق والتوازن فقد يحق لنا أن ندعوه تضخماً لا تقدماً، ذلك أن النمو مضي بسرعة فائقة في الكشف عن أسرار العالم الطبيعي، بينما يعاني تخلفاً زائداً في كل ما يخص الحياة الإنسانية. ومن ثمة استطاعت البشرية– إلى حد كبير– أن تسيطر على الطبيعة حتى حطمت الذرة، وأطلقت الطاقة الهائلة من عقالها، وأشرفت على أن تحيل الكائنات شموساً في الفضاء الوسيع؛ في حين أنها أخفقت في تدبير شئونها الخاصة، فعجزت عن حل الأزمات الاقتصادية التي تفتك بالجموع في قسوة، وتجنب ويلات الحرب؛ وتوفير غذاء الجسم والعقل للملايين، وتحرير الشعوب المستضعفة من نير الذل والعبودية. يحق لنا إذن، في هذا العالم الذي يسوده الخوف والقلق والتضخم الفكري، أن نعتبر التوازن الثقافي مثلاً أعلى.

ليكن في العالم عباقرة متخصصون في كل ميدان، ولكن ليس من الخير أن نذكي العبقرية وحدها، ونغفل شأن أوساط الناس، وإلا انقسم المجتمع إلى نفر قليل من الموهوبين، وجموع غفيرة من الجهال. عن مجتمعاً هذا شأنه لن تستقيم أموره، فلا مناص من أحد أمرين: إما ألا تقدر الجموع الموهوبين جهلاً وغفلة، فتعتبرهم خوارج أو مجانين، وإما أن يزدري

الموهوبون تلك الجموع، فبدلاً من أن يمسكوا بقيادها، يسعون بها إلى حتفها. إنما الواجب يقضى علينا بإنارة ظلمات العقول عامة، وتوفير سبيل الثقافة لكل إنسان حتى يلتئم الصدع وتتحقق الوحدة الفكرية، دون أن نطفئ الشعلة ودون أن نلهبها فتحرق حيث ينبغي أن تضيء، كما حدث لشرارة العلم عندما لم تجد من يصونها ويرعاها.

والمثل الأعلى للثقافة التي نريدها للناس جميعاً، ليس هدفاً خيالياً كأهداف الفلاسفة الحالمين بالمجتمع الأمثل، وإنما هو هدف ممكن التحقيق، لأننا لا نفرضه عل الفكر البشري بل نستمده من طبيعته الحقة. وطبيعة الفكر البشري وحدة لا تقبل فصلاً بين فلسفة خالصة، وعلم تجريبي محض، وخيال صرف، وشعور ديني فحسب. إنما الفلسفة والعلم والفن والشعور الديني، أوجه مختلفة لطاقة واحدة هي الفكر، والاستعداد لكل منها كامن في النفس عرضة للقمع أو الازدهار. والتآلف بينها ليس أمراً مستحيلاً. فالفكر تيار واحد متكامل يصعب أن نميز فيه أجزاء من أخرى، وإن كنت تلمح فيه لوناً غالباً على آخر. فالفيلسوف غلبت على فكره نزعة التفكير الفلسفي– وذلك لا ينفي تسلل روح شاعرية تبرز أحياناً في سياق تأملاته؛ أو سريان حرارة الإيمان التي يندر أن يخلو منها مذهب فيلسوف من الفلاسفة، فما أن يصوغ مذهبه ويطمئن إليه عقله، حتى يسارع القلب مؤيداً ذلك اليقين العقلي الهادئ فيحيله يقيناً حاراً أشبه ما يكون باليقين الديني.

الفلسفة والإيمان

إن تكامل أساليب التفكير خير تفسير لامتزاج الخرافة بالفلسفة في مستهل تاريخ الفكر، حين كان العقل البشري على فطرته لا تحكم أو تكلف في مجرى تأملاته. فرأينا في الأساطير بدايات التفكير الفلسفي، ولم يتعذر علينا أن نفطن لانبثاق روح الدين أحياناً من جفاف الفلسفة، وبرود تأملاتها. وليس غريباً أن يندمج الدين بالفلسفة إذا فهمنا الدين بمعناه الحق: وهو ذلك اليقين بوجود أسمى من وجودنا، وجود تستمد منه الحياة معناها، سواء كان ذلك الوجود إلهاً يتشوف المؤمنون إلى الاتحاد به، أو مثلاً أعلى يهفو إليه الأخلاقيون، أو حقيقة مطلقة يسعى إلى إدراكها الفلاسفة: وجوهر الدين– مفهوماً على هذا النحو– حرارة وجدانية تخفف من برود الحياة. ويؤكد الأستاذ موسى هذا الرأي في كتابه "تربية سلامة موسى" إذ يقول:

"إن الإحساس الديني هو طرب الحب، حب الطبيعة، وحب الحيوان، وحب الإنسان، بل حب الحياة والكون. أما الإحساس الفلسفي فهو تأمل الفكر. ولكن الحقيقة أنهما يندغمان عندي، وإن كان أحدهما قد يتغلب على الآخر في بعض الظروف... والتأمل يطلب السكون في حين يستفزنا الطرب إلى الحركة. فإذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح. ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجي حيث أستسلم للتفكير بعيداً عن المعركة. إذ أني لا أكاد أنتهي إلى فكرة بالتأمل، حتى يعمني الطرب فأنشط إلى الكفاح.

وقد قلت إن ديانتنا أو فلسفتنا تتكون أولاً ثم تتبلور ثم تتجوهر. وعندي أن هذه النهاية، هذا التجوهر هو الحب. وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف؛ كما انتهت السيكلوجية إليه أيضاً. والحب هو اتجاه وسلوك، هو الاستطلاع الدائم للكون، والرغبة النهمه في المعرفة، ثم هو التعاون والتسامح".

وفي التاريخ رجال امتزج في حياتهم عمق التأمل بحرارة الإيمان ونبل الكفاح. من هؤلاء غاندي، الذي عرف جلال الفكر وطرب الإيمان. ومنهم تاغور، الشاعر الفيلسوف الذي اصطبغ شعره الإنساني بعمق الفلسفة، وحرارة الحب، وعذوبة الفن، دون أن يصرفه ذلك عن الكفاح في ميدان التعليم والدعوة السياسية. هذا هو يحدثنا عن فلسفته[1] "إنما أنا شأن كثير من أهل الهند. وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب. وليست فلسفة الهند فلسفة طيرة وابتئاس بالوجود. إن للوجود وحدة، ونحن نؤمن بشيء لا نهائي هو سر الوجود، وليس فيه شيء من معنى العدم. وغاية أديانا جميعاً أن تدفعنا لنجد حريتنا في هذا اللانهائي الكائن على أنه حقيقة ملموسة مفهومة من طريق الروح..."

وهو إذ ينصت إلى الموسيقى يلمس في نغماتها تعبيراً عن فلسفته تلك العميقة، أو كما يقول:

---

[1] عن مجلة المقتطف.

"إلا إن الموسيقى هي أنقى وضع للفن، لذلك كانت أول تعبير، وأوضح بيان عن الجمال في شكله وروحه. وهي أقل الأوضاع حملاً بأثقال الدخيل والغريب عن الفن الخالص. على أننا نشعر عندما نفسر معنى الموسيقى أن مظهر اللانهائية قد حد في وضع من الأوضاع المبتدعة، وأن الموسيقى نفسها ليست إلا وضعاً محدوداً من اللانهائية، فهي الصمت البليغ الذي تلهمه الطبيعة قلوبنا بمباهج مناظرها".

ويترنم بشعره مسبحاً بحمد ذلك "اللانهائي القائم على أنه حقيقة ملموسة":

"أنـــت الـــذي أريـــده. أنـــت وحـــدك

لقـــد ذكرتـــك دائمـــاً في أغـــان لا تنســـى.

أي إلهـــــي، أي زعـــــيم الشـــــعراء،

إنـني لم أجلـس تحـت قـدميك إلا لتكـون حيـاتي

شـــيئاً ســـهلاً كـــاليراع المثقـــب(١)،

الـــذي تمـــلأه الحيـــاة ألحـــاناً وموســـيقى.

أي ربي! إنها لـذاتي التعسة التي لا تعرف الخجل،

---

(١) اليراع المثقب: هو الناي.

ولكنهـــا تخجـــل مـــن المثـــول ببابـــك

إلهـــي، لا نهايـــة للـــزمن بـــين يـــديك.

ومـــــن لـــــه أن يعـــــد دقائقـــــك!

تكر الأيام، وتمر الليالي، وتتفتح الأعمار، ثم تذبل كالأزهار، وتعرف أنت كيف تنتظر[1]".

هذا التوحيد بين الفكر والروح الدينية والكفاح العملي يؤكده جبران في كتابه "النبي":

"أليس الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات؟

أليس الدين كل ما في الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل، بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس أبداً، وإن عملت اليدان في نحت الحجارة أو إدارة الأنوال؟

من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله، وعقيدته عن مهنته؟

من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه قائلاً، هذه لله وهذه لي، هذه لنفسي وهذه لجسدي؟

---

[1] عن مجلة المقتطف.

فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف في الفضاء متنقلة من ذات إلى ذات..."

وما لنا نذهب بعيداً وبينا "طه حسين" الذي حقق في نفسه التوازن الفكري، وفي التوازن كانت عبقريته: فهو يسمو بفكره مع قادة الفكر اليوناني إلى قمة الأولمب، ويهبط إلى النجوع والكفور في صعيد مصر ليكتب "دعاء الكروان"، وينهض ليرسم سياسة التعليم في "مستقبل الثقافة في مصر"، ولا ينسى مع كل ذلك حظه من الأسفار والصداقة والموسيقى.

والنتيجة التي نخلص إليها ليست دعوة ضد التفكير الفلسفي الحر، ولكنها دعوة إلى الإخلاص فيه؛ والمضي في التأمل في جرأة ولكن في بساطة، والتنبه إلى الجوانب الأخرى من الحياة حتى يتحد التأمل بالحب، والعمق بالطرب.

العلم والدين

تحدثنا عن امتزاج الفلسفة بالشعور الديني؛ وفي فصل سابق تحدثنا عن صلتها بالعلم. وعلينا الآن– كي تكتمل الصورة التي تمتزج فيها ألوان الفكر جميعاً– أن نكشف عن الصلة بين العلم والدين. وهنا أعود إلى الحديث عن الدين فأقول إن الناس جميعاً– حتى قبل الأديان السماوية التي تؤمن بإله شخصي خارج الزمن والمكان– تهفو نفوسهم إلى اليقين بشيء أسمى من وجودنا الفردي المحدود، وأدوم من حياتنا العابرة الفانية، من أجله نرضى بالحياة برغم متاعبها، وبه نتعزى عن المحن برغم قسوتها.

ومن الناس من تنطوي نفسه على الروح الدينية دون أن يؤمن بإله شخصي، هكذا كان "بوذا"، و"إمرسون" و"فولتير" و"رينان". وبهذه الروح الدينية استطاع هؤلاء المفكرون أن يواصلوا رحلة الحياة، في رضى وحماس وتعاطف مع الناس جميعاً.

والعلم بدوره يستطيع– في مراحله العليا– أن يزودنا بذلك اليقين. وقد كان خير سند لنفر من العلماء شكوا في العقائد، وكادت تستحيل حياتهم لولا القيمة الدينية التي استمدوها من العلم. فهذا "جوليان هكسلى"، أعرض عن الديانة المسيحية، وهجر الكنيسة، ولكنه وجد العوض في محراب العلم، وأصبح في وسعه– كما يقول– أن "يجد فيرف مليء أجود الكتب، طوله ثلاثة أو أربعة أقدام، شفاعة لا يجدها لدى دستة من القساوسة".

وبفضل العلم استطاع أمثال "وليم جيمس" و"برناردشو" و"إينشتين" و"هايكل" Haeckel أن يؤمنوا بغاية كونية كبرى، وأن يوقنوا– برغم ازورارهم عن التقاليد الدينية– بمبدأ أسمى من أنفسهم، يملأهم طموحاً وسعياً. فهم– على حد تعبير هايكل– "ينزعون إلى ثالوث الحق والخير والجمال". أو– كما يقول "هالدين" J. B. Haldane: "يتجلى الله لنا في مثلنا الفعالة، مثل الحق والخير والإحسان والجمال ومحبة الغير[(١)]".

---

(١) Raymond Cattell: Psychology and The Religious Quest

وهكذا يسهم العلم مع الدين في تزويد الإنسان بالقيم الغيرية، تعينه على تجاوز حدود الذات الضيقة، والتحرر من الفردية القاصرة، والانطلاق إلى الآفاق الشاسعة. ففي العلم ازدراء للقيم التافهة، وشعور بالخشوع أمام عظمة الكون. وذلك ما يجعل رجل العلم يسعى إلى الحقيقة مضمراً إيماناً صوفياً، بأنه أو من يخلفه سوف يصل يوماً ما إلى الضوء الذي يكشف الحقيقة الكامنة في أغوار المادة. وسواء كان يغوص في أعماق البروتو بلازما، أو يكب على إلكترونات الذرة، أو يتفرغ إلى الإحصائيات والأرقام، فهو تغشاه تقوى عميقة، هي السر في ذلك لإخلاص والتفاني في البحث. وقد فطن أينتشتين إلى تلك الحقيقة حين كتب عن "ماكس بلانك" العالم الطبيعي المشهور:

"إن التطلع إلى رؤية هذا التناسق القائم في سابق الزمن هو مبعث الصبر والإصرار الدائمين، اللذين نلمحهما في انصراف "بلانك" انصرافاً كلياً إلى البحث في أهم مشاكل علمنا، لا تصرفه عنها أعمال أيسر منها، وأعوذ منها عليه بالحمد. وكثيراً ما سمعت أن بعض الزملاء يرجعون هذه الخاصة إلى ما يتصف به بلانك من قوة في الإرادة خارقة للعادة، ولكني أعتقد أن هذا خطأ كله، ذلك بأن الحالة العاطفية التي تجعل مثل هذه الأعمال مستطاعة لتشبه حالة العابد المتبتل، أو العاشق الولهان"[1].

* * *

[1] آفاق العلم. تأليف سلفان. ترجمة محمد بدران وعبد الحميد مرسي.

وليس عجيباً بعد ما قلنا، أن ينتهي "نيوتن" بالتصوف، حتى ليفترض أن الفضاء "مركز الإحساس العام" عند الله؛ وأن يمعن السير "جيمس جينز" في إيمانه حتى يرى الكون "فكرة جميلة في عقل رياضي كبير"، وأن يستمد "سلامة موسى" في ثورة الشباب وتمرده على التقاليد والعقائد، هدوء النفس وطرب الدين من نظرية التطور كما يبدو من قوله:

"وليس من السهل أن يكشف الإنسان عن ضميره الديني، كيف تكون ثم نما ثم تبلور في قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسية، ثم تجوهر في اتجاه مفرد يجذب إليه كل ما في الشخصية من نشاط روحي. ولكني أذكر أني، وأنا دون العشرين، أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينياً في نفسي، وأنها قد حملتني واجباً روحياً. وقد نما هذا الواجب في نفسي إلى واجبات ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور، بل زادت في العدد واللون كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيماً. ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية، أن كل حي على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة. لأن كل إنسان قد كان في وقت ماطينة نبضت الحياة، فإذا به فيروس[١] ثم أميبة مفردة ثم أميبات متصلة متعاونة، ثم حيوان رخو بلا رأس، ثم سمك، ثم زاحفة، ثم حيوان لبون، ثم فرد، ثم إنسان. ثم هذا الإنسان سوف يكون سوبر ماناً[٢]".

---

[١] أدنى أنواع الجراثيم Virus.

[٢] تربية سلامة موسى.

ويقفز "سلامة موسى" من سن العشرين ليحدثنا عن إيمانه وقد بلغ الستين من عمره:

"وفي سني أجد أن مصادر ديانتي، أو بالأحرى ضميري الديني، إلى جنب البوذية والإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية، تعود في كثير من النور الذي أهتدي به إلى السيكلوجية والبيولوجية والأنثربولوجية والتاريخ. فإن هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا في المستقبل. ولذلك كانت ديانتي موضوعية منطقية، لا ذاتية عقيدية فقط".

وبعدكم يخطئ من رجال الدين في حق الدين من يحارب الحرية العلمية، في حين أن العلم يخلق عالماً جديداً يستطيع فيه الصوفية أن يعيشوا، والملحدون أن يجدوا هداية وأمنا.

العلم والفن

يبدو لبعض المثقفين أن أسلوب العلم يناقض أسلوب الفن، ويردون هذا التناقض إلى أن العلم تحليلي، بتعمق الأشياء، ويفحص جزئياتها، ويسعى إلى عناصرها، فيصرف الذهن عما فيها من تآلف وتناسق؛ في حين أن الفن تأليفي، لا يبالي بتفصيل الأشياء إلى أجزائها، إنما تعنيه الأشياء في تآلفها، دون أن يفسد جمالها بما يعمد إليه العلم من أساليب التحليل المنطقي أو الفحص التجريبي.

ويفاضل آخرون بين العلم والفن: فيذهب أناس إلى فضل العلم في إدراك واقع الأمور وبعد الفن عن ذلك الإدراك، متخذين القرب أو البعد من الواقع أساساً للتفضيل. ويؤثر أناس الفن، يرونه أقرب إلى حقيقة الشيء من العلم، إذ أن الفنان يحس الشيء برمته، ويصل إلى جوهره بحركة نفسية واحدة، ويتحد به اتحاداً وجدانياً؛ في حين أن عالم النبات، مثلاً، يحلل الزهرة ويشرحها، ويقدمها إليك في نهاية التحليل عناصر كيميائية، وغير ذلك من رموز لا أثر فيها للواقع الحي.

وبرغم وجاهة ما يتذرع به أولئك وهؤلاء، في تمييزهم بين العلم والفنون الجميلة، فهم يغفلون جوانب هامة تعزز الاتفاق والتآلف بينهما. فالعلم ليس تحليلياً صرفاً، ذلك أن المنهج العلمي وأن استند إلى التحليل، واستقراء الأفراد، وفحص الجزئيات، فهو لا يخلو من عنصر تأليفي (synthetic) يعمد إليه بعد أن يركم بالتحليل المواد والمعلومات المختلفة، فينظر إليها في مجموعها نظرة شاملة توحد بينها في صورة واحدة، وأيا كانت درجة التحليل في العلم، فهو لا يخلو من محاولة الربط بين ما يسفر عنه التحليل من نتائج، ينظمها في قانون عام، أو نظرية شاملة تضم أحداث الكون في إطار واحد. وغير خاف أن مرحلة صياغة القانون العلمي أو النظرية العلمية، أخطر مراحل البحث العلمي، وهي في جوهرها عملية تأليفية صرفة. وليست قيمة العلم الكبرى في المعلومات المبعثرة، والأوصاف المتعددة عن هذه الظاهرة أو تلك، والجداول المطولة، والأرقام والإحصاءات؛ إنما هي فيما يصل إليه من نظريات تعيننا على أن نفهم هذا الجانب أو ذاك من جوانب الكون، فهماً يعيننا بدوره على استغلال

الطبيعة في تحقيق أغراضنا. ومن ثمة يحق لنا أن نقرر أن وظيفة العلم التحليلية– على ضخامتها– وسيلة إلى غاية أبعد، هي التأليف الكفيل وحده بتمكيننا من فهم الطبيعة والسيطرة عليها.

ثم إن هنالك مرحلة تأليفية أبعد، تتجاوز التأليف في العلوم الخاصة، هي المقارنة النهائية بين نتائج العلوم المختلفة، ويقوم بها فلاسفة العلوم الذين يحاولون بعد حصر نتائج العلوم المختلفة أن يصلوا إلى فهم شامل للكون في مجموعه. وما العلماء المتخصصون في نظر هؤلاء الفلاسفة، غير رسل يبعث العلم بهم إلى مختلف جوانب العالم الطبيعي كشفاً عن أسرارها: يحلقون في أجواز الفضاء مع النجوم والكواكب، ويغوصون في أعماق المياه مع أسماك البحر وكائناته، ويتوغلون في الفيافي والقفار يفتشون فيها عن أسرار الحياة، ويمتطون السحب ويسرون مع الرياح كشفاً عن عوامل التقلبات الجوية، وينعمون النظر في خصائص الأعداد والأشكال الهندسية. ثم تجمع نتائج بحوثهم، ليقارن بينها فلاسفة العلوم، بغية الوصول إلى نظرة عامة شاملة للكون في مجموعه. وحالما يبلغ العلم هذه القمة، يمتزج بالفلسفة ذات التفسيرات الشاملة، وبالدين ذي اليقين المطلق، وبالفن الجميل الذي يعبأ بالنظرة التأليفية التي تشعرنا بما في الكائنات من تناسق وجمال.

والآن نستطيع أن نتذوق فلسفة أفلاطون، حين تغاضي عن الكثرة البادية للعيان، وتغافل عن مظاهر النقص والشرور، ورد الكائنات الفانية المتعددة الناقصة إلى مثل كاملة لا تفني، هي أشبه شيء بقوانين الطبيعة

الأبدية– كما ظن الأستاذ "وولف"–؛ وحين رد تلك المثل إلى مثال واحد يتحد فيه ثالوث الصانع والخير والجمال: الصانع رمز إلى أن الكون لم ينشأ اتفاقاً، بل هو من صنع عقل كامل توخي الخير ورتب كل شيء عن قصد؛ والخير غاية هذا العالم، ومقصده الأسمى، رباط كل شيء والنور الذي بدونه لا ندرك الحقيقة؛ والجمال كناية عما ينطوي عليه الكون من تناسق وانتظام. ذلك مثال المثل، قمة التفكير الأفلاطوني، بل هو قمة أي تفكير، حيث لا تميز بين الحق والخير والجمال، ولا تفرقة بين علم ودين وفن.

* * *

إن للعلم فضلاً عن قيمته الموضوعية في فهم العالم، قيمته الجمالية في الاستمتاع به. وإن الحماس العجيب الذي يغمر المخلصين من رجال العلم، ويزهدهم في القيم الاجتماعية الزائفة، ويصرفهم عن كثير من شئون الحيا الجارية، لا يمكن أن يفسره كونهم يسعون إلى جمع معلومات جافة، وملء جداول الأرقام والمعادلات. إنما التفسير الحق أن العلم يشبع– فضلاً عن الحاجة إلى المعرفة– نزوع الإنسان الطبيعي إلى الجمال، وفي ذلك يقول "سلفان":

"أما الذي يجعل العلم جديراً بأن يطلب، فهو أن الطبيعة تبدو للإنسان كأن لها نظاماً نستطيع أن نفهمه، وأن الظواهر المختلفة يمكن أن تجمع تحت قوانين عامة. ولو لم يكن في الطبيعة تناسق نؤخذ بجماله إذا

فكرنا فيه– كما يقول بوانكاريه[1]– لكان العلم غير جدير بأن يطلب، ولكانت الحياة غير جديرة بأن يحياها الإنسان"[2]. ويضيف سلفان إلى ذلك قولاً يوضح به القيمة الجمالية للعلم:

"نعم إن في وسع العلم من غير شك أن يشبع ميولاً متعددة، وبه تستطيع أن تحيا ملايين من الأنفس أكثر من التي تستطيع العيش من غيره، وبالعلم يمكن أن تهلك ملايين من الأنفس أكثر مما تهلك بغير وجوده، وفي وسع العلم أن يظهر لنا من العجائب ما نقف أمامه مشدوهين كأبعاد النجوم وضآلة الذرة، ويستطيع العلم أن يبهرنا بما يطلعنا عليه من الأرقام، بل إن في وسعه أن يساعد من يعمل للكسب المادي ولا يفكر في غيره. ولكن العلم في نظر رجل العلم العظيم فن لا أكثر، والعالم نفسه فنان. وليس ما يبتدعه هذا الفنان بأقل مرتبة في الفن لأنه صورة ضئيلة ناقصة من فن آخر هو العمل الفني العظيم، أي الطبيعة"[3].

وإن الذين ينكرون أن في البحث العلمي متعة فنية كبرى هم– كما يقول البير باييه:

"جهلوا الشعور بإحساس العالم الذي يدأب في محرابه (معمله) على البحث في انطلاق بريء من الغاية، وفناء عن العالم في غاية يستلهمها

---

[1] رياضي وفيلسوف فرنسي.

[2] آفاق العلم.

[3] آفاق العلم، ص١٨٤.

الحماسة. إن العلماء ينكشف لهم بعد البحث الطويل بهجة فنية كبرى". وكما يبدون من وصف "ترمييه" لبهجة أولئك الباحثين:

"بهجة جاليلي حين رأى تحت قدميه حركة الأرض، وبهجة كبلر وهو يرهف السمع في سكون الليالي الجميلة، إلى الصوت البعيد، صوت دوران الأفلاك، ذلك الدوران الذي صاغ قوانينه الدقيقة؛ وبهجة نيوتن حين رأى ثبوت شمول الجاذبية في كل ما حوله من العالم، ورأى علم الفلك يصبح مشكلة بسيطة من مشكلات الميكانيكا"[1].

أجل إن "نيوتن" بعد أن كشف قوانين الجاذبية، لم يعد يرى العالم الطبيعي كائنات متفرقة مبعثرة في فضاء لا نهائي، بل نظاماً واحداً متناسق الأجزاء، وعملاً فنياً رائعاً يدل على روعته تلك القوانين المنبثة في صميم الأشياء، كالروابط الخفية التي تنسقها وتربطها في إحكام مبدع. ومنذ حوالي خمسة وعشرين قرناً كان فيثاغورس كلفا بدراسة الأفلاك، معنياً بالموسيقى وخصائص الأعداد والأشكال الهندسية. وقد تبين له أن اختلاف الأشكال الهندسية راجع إلى اختلاف في النسب بين أضلاعها، وبتعبير آخر، إلى الاختلاف في الوحدات العددية، التي يتكون منها كل من هذه الأضلاع، وتبين له أيضاً أن القياس العقلي (عن طريق البرهان الرياضي) يطابق القياس الواقعي مطابقة تامة. فيمكن مثلاً أن نوقن– بالبرهان الهندسي– أن مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين، دونما حاجة إلى قياس فعلي لزوايا المثلث. حينئذ أيقن فيثاغورس أن خير تصور للعالم هو التصور الرياضي،

[1] دفاع عن العلم، ترجمة الدكتور عثمان أمين.

وأن العدد– أساس الرياضة– هو الحقيقة الأولى، وليس ما عداها من مظاهر الوجود غير أعراض لها.

ومن دراسته للموسيقى، اتضح له أن اختلاف النغم راجع بدوره إلى اختلاف أطوال الأوتار التي تحدثها، وأن تعدد نغم الوتر الواحد ناتج عن إمكان تحكمنا في الوتر طولاً وقصراً. وعلى ذلك فالنغم أيضاً يتوقف على النسب العددية، وما اللحن الموسيقى غير نغم متماسك متآلف، أي وحدات عددية تمتزج فيما بينها بنسب متفاوتة. ومن كل ذلكانتهى فيثاغورس وأتباعه إلى فلسفة في الوجود، مؤداها أن العالم عدد ونغم. وكانت الكشوف الفلكية والرياضية التي وفق إليها الفيثاغوريون، جديرة أن تغمرهم بفرحة كبرى، ونشوة جارفة، وإحساس صوفي، حتى هي لهم "أن لحركات الأفلاك نغمات في الأثير العلوي، وأن سرعة الأفلاك تتفاوت بتفاوت مسافاتها، كما تتفاوت في العود سرعة الاهتزازات بتفاوت طول الأوتار، وأن في السماء ألحاناً كألحان العود، وإن كنا لا نشعر بها فإنما ذلك لأنا نحسها باتصال، والصوت لا يشعر به إلا بالإضافة إلى السكون"[1].

ولم يكن الفيثاغورين وحدهم هم الذين رفعهم الفلك والرياضة إلى الآفاق الجمالية والصوفية، فقد حدث نفس الشيء لطائفة من علماء المسلمين هم من نعرفهم باسم "إخوان الصفاء" الذين يقولون قولاً يقرب من قول فيثاغورس:

---

[1] تاريخ الفلسفة اليونانية. تأليف الأستاذ يوسف كرم.

"إذا تفكر ذو اللب، تبين له أن في نغمات تلك الحركات لذة وسروراً مثل ما في نغمات أوتار العيدان في هذا العالم، فعند ذلك تشوقت نفسه إلى الصعود إلى هناك، والاستماع لها، والنظر إليها..."

ويمعن "إخوان الصفاء" في متعتهم الروحية، ويدعون الناس إلى مشاركتهم التحليق في أجوائهم الصوفية:

"فاجتهد يا أخي في تصفية نفسك، وتخليصها من بحر الهيولي[1]، وأسر الطبيعة، وعبودية الشهوات الجسمانية. فإن هذه هي المانعة لها من الصعود إلى هناك بعد الموت".

والخلاصة أن الروح العلمية يمكنها أن تكون مبعث كلف بمفاتن الطبيعة، وخير عون على تعمق ركام الظواهر لاستخلاص التعبيرات المتلاشية في لجتها، وتسمع الموسيقى السارية في جنباتها.

* * *

إن كان الفن يغلب عليه العنصر الذاتي، فليس يخلو من قدر من الموضوعية لا غنى عنه. وبتعبير آخر ليس الفن انفعالاً صرفاً، إنما ينطوي على قدر من الفهم والإدراك. والحق أن الفنان– بأسلوبه الخاص في التعبير عن الجمال– يزيدنا فهماً للكون، ومن ثمة يزيد من قدرتنا على السيطرة عليه. فهو يهتدي بحسه الدقيق، وشعوره المرهف إلى أمور في العالم ليس

---

[1] المادة.

بوسعنا جميعاً الاهتداء إليها. فأذن الموسيقى تلتقط النأمة، وتجمع بين شتات الأصوات في لحن واحد، نكاد نجزم أنه يأتلف من أنغام ليست من العالم الذي نعيش فيه، وما ذلك إلا لأنه يطلعنا بفنه على أسرار مطوية في تضاعيف هذا الفضاء، لا تفطن إليها جموع البشر التي أثقلتها الحياة بمطالبها، وأذهلتها الاهتمامات التافهة عن خير ما فيها.

يقف المرء يشرف من عل على مشهد من مشاهد الطبيعة، غافلاً عما فيه من جمال. إنه يرقب السحاب، ويتطلع إلى مياه النهر الجارية، ويصعد بصره إلى نهايات النخيل أو قمم التلال، وتلفحه الشمس فيلتفت إلى قرضها في ضيق، وتكاسل. هذا قصارى ما يشاهده الغافل عما وراء الظواهر. في حين أن الشاعر لا يرى فحسب سحاباً ونهراً ونخيلاً وتلالاً وشمساً، إنما هو يتأمل سحائب السماء تروى أرضاً عطشى، ومياه النهر تحتي موات الطبيعة، وأشجار الصفصاف تحنو في رفق على الغدران المنسابة في أمن ودعة، وباسقات النخيل ترعى المراعي الخضراء، والريح تهدهد الساريات في النهر كالأعلام، والشمس تحتضن بأشعتها الذهبية المرسلة الكون بأسره، والقمر يسهر على الخلائق في ظلام الدنيا، والزهرة تسلم رحيقها للنحل في رضى ونبل، والطير يسري إثر الطير في تعاطف رفيق، والنمل يتنادى لمرأى الطعام، والغصن يهتز في تجاوب مع تغريد الطيور، والأثير يرسل أعذب الألحان إلى آذان الوجود. يتأمل الشاعر تلك المفاتن جميعاً، لأنه لا يقف ببصره عند الأجزاء والظواهر، بل يتعمق بوجدانه الكون في حركة شاملة بسيطة، تبرز لنا معنى ينطوي عليه العالم الطبيعي،

معنى تطمسه غمائم الآمال التافهة، والتنافس المحموم، والحقد الإنساني الأحمق، ذلك هو المحبة والتسامح والسلام.

وإن كان الفن يحظى بقسط من الحرية لا يتوفر للعلم، فليس هو الحرية المطلقة، فلكل فن قواعد يلتزمها. وتلك هي الموسيقى– التي يعتبرها "تاغور" أرفع الفنون منزلة– لها قواعدها التي لا يستطيع أعظم الموسيقيين حظاً من الأصالة والتفرد أن يشذ عنها. ولا يضيرنا أن إمكانيات التحرر والانطلاق في قواعد الفن أوفر منها في ظل قوانين المنطق الصوري، أو قواعد البحث التجريبي.

هذا وقد كان الفن الكلاسيكي عامة وثيق الصلة بالفلسفة النظرية، وكانت كل حركة فكرية في التاريخ يتجاوب صداها في حركة فنية تقابلها. وقد حقق الفن الكلاسيكي على وجه الخصوص تأليفاً متيناً بين الفكرة وبين التعبير الجمالي، ووفق بين المعنى العميق والانفعال الحار. وذلك ما يجعلنا عاجزين عن تذوق موسيقى "بيتهوفن" أو "فاجيز" ما لم نكن في مستوى ثقافي، يتيح لنا أن تنفذ من خلال الأنغام المرتعشة المضطربة المتغايرة، إلى ما يستخفي فيها من الأفكار والمعاني، وما لم نبذل من الجهد التأملي ما يمكننا من التنبه إلى تلك الأفكار والمعاني الذائبة في النغم. وهذا "تاغور"– كما أسلفنا– يعتبر الموسيقى خير مجلى لفكرته عن اللانهاية، فهي في نظره "مظهر اللانهائية قد حد في وضع من الأوضاع المبتدعة".

إذن فالموسيقى، والمصور، والمثال، والشاعر، كلهم يسهم مع العلماء في الكشف عن حقائق هذا الكون. ولا يغض من قيمة الفن أنه يكشف عن الحقائق من خلال النفس الإنسانية، وأنه نتيجة التفاعل الوجداني بين العالم الخارجي وعالم الذات الداخلي. فلولا الفن لغفلنا عن جانب زاخر من الحياة، وكنا– رغم استحواذنا على حقائق العلم الموضوعية– في فقر أي فقر.

خاتمة

إذن فقد انعقدت الرابطة بين شتى نواحي النشاط الإنساني، وتبين أن الخطأ الذي يجعلنا نتوهم التناقض والتنابذ بينها، هو أننا ننظر إلى منتجات الفكر البشري متحققة في الخارج بمعزل عن نفوسنا. فننسى أن الفن والعلم والدين والفلسفة إنما هي بعض نفوسنا النابضة بالحياة دونما انقسام أو تجزيء، وأن السبيل الوحيد لإدراك وحدتها المتكاملة، هو أن ننظر إليها من خلال العقول والنفوس التي أنتجتها.

وعلى أساس هذا الإدراك الواقعي لطبيعة الفكر الإنساني، يحلو لي أن أعتبر "السوبر مان" الحق: ذلك الإنسان الذي لم يدع حمى التخصص تفتك بأية قوة من قوى النفس، ولم يغفل أي مصدر ثقافي من مصادر عظمة الإنسان، وإنما يحيا بكل قواه طالما الحياة بقوة واحدة موت جزئي. وأرجو ألا يتفهم من قولي هذا أنني أنكر التخصص، فهو أمر لا مندوحة عن أن تحتمل عبئه فئة من الناس عليها تبعة السير بالعلم نحو غايته الإنسانية المنشودة.

ولكني إذ اعتبر "الاتزان الفكري" المثل الأعلى الذي أدعو المثقفين أن يرنوا بأبصارهم إليه، لا أقصد بالمثقفين فئة العباقرة– إن كان ثمة

عباقرة– فأمرهم لا يعني أي كاتب، بقدر ما تعنيه صوالح الأمة برمتها. إلى المثقفين حاولت أن أبين أن "السوبر مان" ليس الإنسان الذي يشقى بحكمته، أو ينحرف بفئة، أو ينسى إنسانيته لفرط علمه، أو يطفئ شعلة الحياة بتجاوز الحد في إيمانه.

ليس "السوبر مان" أحد هؤلاء، ولا هو مخزن تركم فيه معارف غيره وأفكارهم، حتى تثقل ذهنه وتعرقل ازدهار تفكيره. وقديماً قال "لوك" الفيلسوف الإنجليزي:

"إن الأمل أن نعرف بعقول أناس غيرنا، ليس أبعد عن العقل من الأمل أن نبصر بأعين غيرنا، وإن نصيبنا الحقيقي من المعرفة، هو على قدر نظرنا في الحقيقة والعقل وتحصلنا عليهما. وإن تراكم آراء غيرنا في أدمغتنا لا يزيدنا علماً ألبته، وإن صادف أن تكون تلك الآراء حقيقية، فالذي كان فيهم علماً ليس فيناً إلا تمسكاً برأي مع التصلب فيه. فنصيب كل واحد في العلوم هو ما يعرفه ويفهمه حقيقية، وليس ما يصدق به وثوقاً بالغير إلا خرقاً".

وأزيد إن العلم ينبغي أن يكون وسيلة إلى سعادتنا وسعادة غيرنا، والسعيد هو الذي يحقق التوازن بين قوى النفس، والذي يحيل الأفكار والمعارف والتجارب إلى كيانه: تنير عقله، وتهدي قلبه، وتشبع نزوعه إلى الحق والخير والجمال.

وما المجتمع المثالي أو "اليوتوبيا" التي تحلم بها، غير مجتمع عالمي: دستوره تحرير المرء من النظرات الجزئية، والتعصب الأعمى، والعيش اليومي الرتيب؛ ومواطنوه أولئك المخلصون البسطاء، الذين يحيون ويفكرون ويطمحون في مستوى إنساني، يتشبثون به فلا ينحطون إلى حضيض الحيوانية، ولا يتعالون إلى آفاق ملائكية.

وإن تحقيق هذا الحلم، بوسع كل امرئ يؤمن أن إنسانيته أسمى من أن يبددها الاستسلام لتيار الحياة الجارية، بمتاعبها العابرة، وأهدافها التافهة وآفاقها الضيقة. وكل امرئ– كائناً ما كان نصيبه من الذكاء، وحظه من متاع الدنيا– ينطوي في كيانه على مصدر العظمة البشرية، أي الفكر المتحفز بطبيعته إلى الانطلاق من قيود الأوهام الجامدة، وأسر الرغبات الوضعية، وسجن القيم المبتذلة، ويمتلك إمكانيات لا حصر لها، تكفل له– لو أراد– القدرة على إثبات وجوده.

وكثيراً ما تنتابنا بسبب الفساد الاجتماعي، وتقلب الزمن، وشرور البشر– أزمات من اليأس والشكوك الهدامة والأشجان المبيدة، حتى لتفقد الحياة كل معنى، ولا يبقى لوجودنا ما يبرره. حينئذ نتطلع إلى سند يسمو بنا من وهدة الاستسلام، وغالباً ما نهتدي إلى ذلك السند في رحاب الفكر المتزن، الذي يكشف لنا آفاقاً شاسعة، ويزودنا بالقوة الدافعة إلى المقاومة والعمل الإيجابي المنتج فالفكر والمقاومة، كلاهما سبيلنا إلى الحرية والخلاص.